بين القدماء والمحدثين

مسرحية الضفادع لأرستوفان

إن قيل إن تاريخ الأحداث يعيد نفسه فوجدنا ما يصدّق هـذا القول من الأحداث المعاصرة ، فتاريخ الأدب يعيد نفسه إعادة أدق وأصدق . والأدلة على أمانة هذه الإعادة لا تحتاج إلى بحث أو إشارة ، وإنما يكفى فيها أن نطلع عليها . فهذا النزاع بين القدماء والمحدثين منذ وجد فى تاريخ الآداب يكاد يعيد نفسه فى التفاصيل الدقيقة فى كل أدب وفى كل زمان ، وحجج المحدثين واتهاماتهم كحجج القـدماء واتهاماتهم هى هى لا تـكاد تتغير بتغير الأزمان والأمم والآداب .

ولعل مسرحية أرستوفان التى سماها الضفادع والتى كتبها آخر القرن الخامس قبل الميلاد ، تصور لنا النزاع كما نراه اليوم يتفق فى كل هامٍ ، ولا يكاد يفترق إلا فى التافه والأقل . ولا تمتاز تلك المسرحية بأنها أقدم صورة وصلتنا لهذا النزاع ، بل إنها أدقها وأكملها وربما كانت أجملها . فلقد صور لنا النزاع مسرحية شعرية أضاف إليها خيال الشاعر ونبوغه فى فن المسرح حركة وحياة لا نجدها فيما قد صور لنا من هذا النزاع فى كتب تاريخ الأدب أو أخباره . أكثر من هـذا أن المسرحية هزلية خففت السخرية المرة فيهـا من جفوة المتنازعين وحماستهم وجعلت العقل يمر بخطوات النزاع مروراً يسيرا خفيفاً لم يقلل يسره من عمقه ولا خفته من صدقه .

هذا أرستوفان عاش فى أثينا أواخر القرن الخامس وأوائل الرابع قبـل الميلاد ، فشهد فى جمهور المسرح صورة مصغرة من التحلل الذى بدأ يدب فى كيان الأمة اليونانية . وهؤلاء شعراء المسرح ، أو معلمو الشباب كما يسميهم ، لا يفعلون أكثر من أن يمهدوا لهذا الانحلال سبيله بما يقدمون للناس من

مسرحيات . وكأنهم لم يكتفوا بما فعل السفسطائيون وما أدخلوه من صنعة على الأدب والمتأدبين ، فيها إفساد لعقول الشباب وملكاتهم فراحوا يقدمون هم أيضاً نصيبهم من هذا الافساد مسرحيات لاتحفز على عظمة ولا تحض على نبل ، بل لا تدل على خير .

إن المسرح الأثينى لم يكن كمسارح اليوم يقف ببابه من يفرز الداخلين ، فلا يسمح إلا لمن دفع الثمن بالدخول . كلا ! إنه مسرح حر يؤمه الأثينيون أجمعون لا فرق بين غني وفقير . كل من أراد دخله ولا يكلفه الدخول شيئاً . لذلك كان خطره أشد وافساده للناس أبعد مدى . كل أثينى عرضة لهذا الإفساد . ومنذا الذى كان يعيش فى القرن الخامس قبل الميلاد فى أثينا ولا يحب المسرح يدخله كلما سنحت له الفرصة . وهؤلاء كتّاب المسرح بدءوا يتملقون شعور النظارة بما يقدمون إليهم من نكات سمجة وموضوعات سهلة والجمهور يقبـل ، والأدب الرخيص يؤلف فى سرعة ، وعوامل الإفساد والانحلال تقوى وتشتد .

هذه هى الظروف التى مهدت لهذا النزاع أن يقوم فى شدة وقوة . فهل تختلف تلك النذر عما ألفنا أن نجد فى كل قومة لهذا النزاع فى تاريخ الآداب على اختلافها ؟

وهذا عميد شعراء المأساة الشاعر العبقرى أوريبيد الذى فتن به الأثينيون فرفعوه إلى عرش الفن ، وراحوا يقدمون له من إعجابهم قربانا . وتشجع الشاعر وراح يؤلف ويؤلف ، ونظر أرستوفان فى أدب أوريبيد فلم يجـد فى فنه الجديد جمالا على مافيه من روعة ، وكل ما أحسه الشاعر هو أن هذا الجديد عامل قوى فيما أصاب الأثينيين فى خلقهم ، فليصب جام غضبه على هذا الشاعر لأنه رمز التجديد ، بل هو فى نظره رمز الإفساد باسم التجديد وراح يؤلف المسرحية تتلوها الأخرى ، كلها فى نقد هذا الشاعر ، والحط من مركزه . ولكن النتيجة التى يعرفها كل قارئ لتاريخ أى أدب من الآداب هو أن الجديد يخلد بجدته ، وأن الجديد وإن يكن عاملا من عوامل الإفساد هو صورة جميلة للواقع الذى لانستطيع أن نبرأ منه . فإن تكن مسرحيات أوريبيد فى نظر أرستوفان قد أفسدت الخُلُق الأثينى كما أراده هو ، فلقد نفثت فيه من قوة الشخصية وحب الحقيقة مالم يكن لمثل أرستوفان أن يقدره . وليس المجد الحربى

أو السياسى ، للأسف ، هو المقياس الذى تقاس به حضارة الأمة . فلئن ضعفت أثينا سياسياً فى هذا القرن ، لقد بلغت فى الحضارة أوجها فى نفس هذا القرن الذى سخط فيه على الاثينيين أمثال أرستوفان . ولكن أرستوفان وأفلاطون من بعده وغيرهما لم يريدوا أن يروا شيئاً من هذا ، فليصبوا سخطهم على الشعر والشعراء وليكن النجاح الذى صادفه أوريبيد حافزاً على الحقد عليه والإمعان فى الحط من شأنه .

ومسرحية الضفادع ما هى إلا واحدة من تلك التى ألفها أرستوفان هجاء لاوريبيد وإن تكن أجملها . فقد تفنن فيها خياله فجعلها هزلية بارعة حقًّا . هذا أوريبيد بطل التجديد . وبحث أرستوفان عن ممثل للقديم فلم يجد أفضل من شاعر المأساة العتيد اسخيلوس بطل المأساة القديمة وحامل لواء الأدب التقليدى ، هذا الأدب الذى لا يتحدث إلا عن الجميل ولا يحض إلا على الشجاعة والإقدام ولا يبصر إلا بالخيرات الطيبات . هذا هو المعلم الحق ، وأوريبيد هو المفسد الحق . فلتكن المسرحية امتحاناً لهما أو ميزاناً يوزنان به ، فيرى النظارة إلى من تكون الغلبة .

ولكن النظارة تحب أوريبيد ولقد نسيت اسخيلوس . وأرستوفان ناقد حرٌّ يرى الجمال حيث هو ولا يتعامى عنه فى سبيل ما يجب من مُثُل عليا للخُلُق الآثينى . ولقد خفف موت أوريبيد كثيراً مما كان بينهما من حقد وعداوة . فللشاعر الجديد إذاً فى هذا الميزان شىء من القيمة تجعل الامتحان شيق النتيجة ، فهو امتحان حق تعلق فيه قلوب النظارة وأسماعهم تلهفاً لسماع القول الفصل فى شاعرين لكل منهما مزاياه . ترى أتكون الغلبة للجديد أم للقديم ؟ لما قد دسّوه أو لما قد أحبوه ؟ فلننظر إذاً فى هذا الذى فعله أرستوفان .

تبدأ المسرحية بأن إله اللذة والفن واللهو قد برم بالحياة بعد موت شاعر أثينا الفذ أوريبيد ، وهو يريد أن يعيده إلى الحياة بأى ثمن . لقد ذهب إلى أعماق الأرض بحكم الموت ، ولكن هرقل قد رحل من قبل رحلته المعروفة فى غياهب الموت وعاد منها ، فما ضر هذا الإله إذا حاول محاولة هرقل فنزل إلى الجحيم ليستخلص روح أوريبيد ويعود به إلى ظاهر الأرض ، إلى الحياة من جديد ! هيا يا عبد احمل حمولتك ولنذهب إلى ظلمات الجحيم نستخلص روح من كان يسعدنا ويلهينا . ويقوم العبد وما يحمل ليتبع سيده ، ويتنكر السيد فى زى

هرقل ، فلعل فى هذا مايساعد على اقتحام ظلمات الموت . وتبدأ الرحلة . ومنظر إله الفن فى زى البطل الحربى العظيم مبعث ضحك منذ افتتاح المسرحية . ويلتقى السيد وعبده بهذا وذاك وكلهم يأتيهما عن الطريق بأخبار ، وإذا هما أمام بحيرة الموت التى لا بد من عبورها ، ولا بد من رشوة النوتى بدنانير معدودات معلومات ، وإذاهما بالزورق الصغير يعبر بهما البحيرة والضفادع يعلو نقيقها ويعلو حتى يتصدع من صوتها الإله ويصيح ضجراً . ولكنها تمضى فى نقيقها الذى يشبه شعر الشعراء الغنائيين ، فيما يقول النقاد فى ذلك العصر ، يصدع ولا ينتهى وأخيراً يصل إله الفن وعبده وقدأمرضهما النقيق إلى شاطئ الموت أو الجحيم . والإله فى زى هرقل يريد أن يخيف أهل الجحيم بشجاعته ، ولكنه مايكاد يصل إلى قصر إله الجحيم حتى يضطرب ويخاف . وهذا عبده يشجعه ساخراً ، فيشجُعُ ويطرق الباب ، فيخرج إليه حارس القصر فى جلال وهيبة وصوت يدوّى كالرعد يسأل من الطارق ، فيقول إنه هرقل . فيخرج إليه يريد أن ينتقم منه بما أفسد فى الجحيم يوم جاء إليها . ويخاف إله الفن ويحاوره ويغافله ليستبدل مع عبده لباسه ، حتى يتلقى العبد ما قد قدّر له من ضرب وتعذيب . ويقبل العبد وإذا المارون به والخارجون من القصر يجلونه على أنه الإله هرقل ، فيغتاظ سيده ويطلب إليه أن يعود إلى لباسه من جديد . ولكن الحارس يخرج من القصر يريد أن ينفذ فيه العقوبة ، فيغافله مرة أخرى ويعود إلى لباس العبد ، وهكذا حتى يحار فيهما الحارس . والعبد إذا مادنا العذاب صاح أن سيده هو الإله وأنه هو العبد ، وإذا كان وقت التمجيد والإجلال أصر على أنه هو الإله ونهر سيده على أنه العبد ، بل سخر منه مر السخرية . ولا يجد حارس القصر حلاً إلا أن يشبعهما ضرباً ليعرف أيهما الإله لأن الإله لن يؤذى بالضرب . والعجيب أن العبد وسيده يثبتان لهذا الامتحان فلا يعرف الحارس أيهما السيد وأيهما العبد . وأخيراً يقول ادخلا القصر ورب القصر سيعرف الإله من العبد ، فالآلهة لاشك متعارفة . فيقول العبد : حل جميل لاعيب فيه إلا أنه أتى بعد أن أشبعتنا ضرباً . ويدخلان القصر .

وقبل أن نرى ماذا حدث لهما داخل القصر لابد لنا من وقفة بهذا المنظر الذى طال بين الإله وعبده وتبادلهما اللباس . فما قيمة هذا المنظر فى الفكرة العامة ؟ يقول النقاد إنه إشارة من الكاتب إلى ما كان من الأحداث السياسية

فى أثينا إذ ذاك . فلقد نفت الدولة زعيما من الزعماء الذين أخلصوا لأثينا ، فرمز الكاتب بالإله فى هذا المنظر إلى أثينا ، وبالعبد المخلص إلى هذا الزعيم ، يتبادلان اللباس ، فلم تكن أثينا وزعيمها إلا شيئاً واحداً فى الواقع . ويصيب أثينا الخير إذا سلمت نفسها إلى الزعيم كما يصيب العبد الخير إذا ما ألبسه سيده لباسه ، وهما على كل حال أمام الخير والشر وحدة لا يضارّان إذا ما اتفقا ، وكل منهما قوى شجاع يستطيع أن يخوض الشدائد غير هياب ولا وجل .

والواقع أن كتّاب المسرح بل أدباء أثينا عامة لم يكونوا ليستطيعوا ، وخاصة فى هذا العصر الذى ازدهرت فيه الديمقراطية أيما ازدهار ، إلا أن يشيروا إلى الأحداث السياسية التى كان الأثينيون يحبونها وكأنها حياتهم الخاصة ، يطربون لخيرها ويجزعون من شرها كما يطربون ويجزعون لخير حياتهم الخاصة وشرها . ولعله مما يقوى هذا الفرض أيضاً ما أتى به الشاعر فى شأن هذا الزعيم نفسه فى المسرحية فى امتحان الشاعرين فقد سماه الشاعر بالذات ، وكان إبداء الرأى فيه من أسئلة امتحان الشاعرين . ولكن أقصد الشاعر حقًّا إلى هذا ، أم هو أراد مجرد إضحاك الناظرين من هذا العبد الذى ظل محور الفكاهة فى أكثر من نصف المسرحية ؟ إن طريقة هذا الإضحاك والتمادى فى تكراره تجعل لهذا الفرض الأخير شيئاً من القيمة وتشكك المرء على الأقل فى أن يكون الشاعر قد أراد بهذا الفصل جدًّا أو سياسة .

وتعلو الضوضاء فى قصر إله الجحيم ، ويسأل إله الفن عن الأمر فيخبر . إن حدثاً قد وقع فى هذا القصر العظيم . فعلى يمين الإله عرش احتفظ به لملك المسرح من المؤلفين . وشغل العرش لزمان طويل شاعر أثينا الأمجد أسخيلوس . لكن الموت حمل إليهم حديثاً شاعراً مجيداً هو أوريبيد ، فجاء هذا وحاول أن ينزل أسخيلوس عن عرشه ليحل مكانه ، وأبى ذاك أن يتنحى له ، فقامت المعركة . واقترح إله الجحيم إقامة مباراة بين الشاعرين ، من فاز منهما جلس على العرش . وهذا إله الفن واللهو أتى ليستخلص أوريبيد ، فما ضره لو نظر هذه المباراة وحمل معه إلى الدار الدنيا من هو أحق بالإحياء من الشاعرين . ويدعو إله الجحيم إله الفن ليحكم فى هذه المباراة التى احتشد إليها رهط الجحيم كلهم متحمسين مترقبين . وتبدأ المباراة .

وفى هذه المباراة يصور لنا النزاع بين القديم والحديث . فأسخيلوس شاعر

القدامى، وأوريبيد شاعر المحدثين. ويقف أوريبيد معتداً بنفسه إن جمهور أثينا معه، هم الذين نصبوه على عرش المسرح فى الحياة، وهم الذين نسوا أسخيلوس وشعره هم الذين اهتزت قلوبهم لما ألف لهم من شعر، فالجمهور معه كما هو مع المحدثين فى كل نزاع قام بينهم وبين القدامى. ومن طريف ما يقول الشاعر المحدث لخصمه القديم عندما يدعى إلى تلك المباراة قوله: إنه لايقف مع الشاعر القديم على قدم المساواة فى مثل تلك المباراة. فلما سأله الإله لماذا؟ قال: لأن شعر أسخيلوس معه هنا فى الظلمات لأنه مات معه، أما شعرى أنا فليس معى لأنه حى هناك على الأرض.

إن يكن النظر فى تفاصيل هـذه المباراة عسيرا لأنه يشير إلى أبيات بعينها ومواقف من مسرحيات معروفة لدى جمهور أثينا فإن جوهر الإشارات واحد: فالحديث يعيب على القديم تكلفه وبعده عن الواقع. والقديم يعيب على الحديث نزوله عما يجب له من جلال فى سبيل تملق شعور العـامة حيناً وتصوير الواقع الدقيق على ما فى الواقع من معايب يجب أن تخفى حيناً آخر. والحديث يعيب على القديم صناعته اللفظية، فيقول أوريبيد لأسخيلوس إنك لم تستعمل قط لفظة بسيطة، ولما سلمتـنى إله الشعر كان مرركشاً مزخرفاً يمج من منظره الذوق السليم فحرصت على أن أخلع عليه جمال البسـاطة والذوق الرفيع. والقديم يعيب على الحديث ألفاظه المبتذلة وتصويره لعامة الشعب بل جعله الملوك كعامتهم. يقول أسخيلوس لأوريبيد: إنك ألبست الأمراء والنبلاء لباس الشحاذين فظهروا فى خرق مهلهلة ليستدروا عطف الجمهور، وأسأت استعمال الكلام فلم تستعمل إلا كل عامى عادى مبتذل

ويحمى بينهما النقاش وتثار قضية الأخلاق التى تثار فى كل نزاع بين حديث وقديم. ويسأل الإله عما يفضل به الشاعر شاعراً، فيجيب أوريبيد: بما يبث فى نفوس النـاس من فضيلة وما يزرع فى عقولهم من حكمة. وهنا ترجح كفة القديم هذا الذى تناسى الواقع ليرسم المثل الأعلى فلا يرى الشعب إلا كل جميل وكل كامل مهذب على مسرحهم. وحجة الحديث تلك الحجة الأبدية فى مثل هذا النزاع هى أنه إنما كان يصور الواقع والحقيقـة. وحجة القديم أن من الواقع ما يجب ستره فى سبيل الأخلاق، وحجة الحديث أن الحقيقة أولى من الفضيلة.

ويأتى الفصل الأخير حيث يهزأ الـكاتب من السفسطائيين فى عصره

وصناعتهم الـكلامية المحضة ، فيؤتى بميزان يقف كل شاعر منهما أمام كفة من كفتيه ليقول أثقل بيت من أبياته فيحكم الإله أيهما كان أثقل ميزاناً . يقول أوريبيد مثلا « إن الـكلام معبد الإقناع ومذبحه » . ويقول أسخيلوس « إن الموت إله لايقبل الضحية » . ويوزن البيتان فترجح كفة أسخيلوس . فإذا سئل الإله لماذا ؟ قال : إنه ذكر فى بيته الموت والموت أثقل المصائب فكيف لاترجح كفته . وهكذا لعب بالألفاظ صريح ترجح فيه كفة الشاعر القديم أبداً . ويأتى امتحان أخير يقوى فكرة الرمز السياسى فى الفصل الذى تبادل فيه الإله والعبد لباسهما ، وهو سؤال صريح عن هذا الزعيم المنفى من أجاب عنه إجابة خيراً من صاحبه فقـد فاز ، فيجيبان ويظل الإله حائراً . ويتطور السؤال من رأى فى الزعيم إلى سؤال عما يراه الشاعر وسيلة لإرجاع أثينا إلى ما كانت عليه من مجد وأمن ورخاء ، فيجيب الشاعران وكان الشـاعر الحديث أحسن إجابة ؛ يقول القديم لأنه أحدث عهداً بالمدينة وأحوالها . ويأتى ميعـاد النتيجة والـكل متلهف على سماعها وخاصة أن الإله قد وعد أن يأخذ معه إلى أثينا الشاعر الفائز . ويتلـكأ الإله فى التفضيل . إنه يشعر بما نشـعر به جميعاً نحو القديم والحديث بل بما شعر به النـاس فى كل العصور نحو المتنازعين فى هذا النزاع الأبدى . إن أحدهما يعجب والآخر يُلذ ويُطرب ، فأيهما أفضل ؟ وأخيراً يفضل الإله الشاعر القديم . والطريف حجته فى ذلك إذ يقول : « ذاك أنى أميل إليه » . وكأنما الذوق الشخصى هو كلمة الفصل فى النقد . وهنا يثور الشـاعر الحديث وقد جزع أن الإله سيتركه للموت فيقول له « ياقاسى القلب أتتخلى عنى للموت ! » فيجيبه الإله بأسلوبه الفكه الذى لازمه طوال المباراة : « ولم لا فلعل الموت خير من الحيـاة ولعل فى الموت حياة وفى الحياة الموت » . وقبل أن يغادر إله الفن الجحيم مع شاعره يقام له حفل يكرم فيه هو وشاعره وبذلك تنتهى المسرحية .

لم يكن أرستوفان أول من ابتدع صورة هذا النزاع بين الشعراء محكمة أو مباراة بين القديم والحديث ؛ فلقد سبقه الشعراء وغير الشعراء إلى ذلك وإن يكن ما فعلوه فى هـذا المضمار لم يصلنا إلا ناقصاً مشوهاً ، ولـكنه على نقصه وتشويهه يدل دلالة واضحة على هذه الصورة . ولعل النزاع بين أسخيـلوس وسوفوكليس كان قريب عهد بأرستوفان . ولم يميز أرستوفان بأنه صور لنا الإله فى سذاجة فكهة كانت روح الإضحاك فى المسرحية وخاصة عند ما ينبهه الشعراء

إلى مواطن الجمال والقبح فى مسرحياتهم فيوافق عليها فى سذاجة من قد أحسها فعلا من قبل ولم يستطع أن يعبر عنها بل خاصة فيما صوره من عدم الكلفة الصريحة بين الإله وأبطال المسرحية مما جعل تلقيبه بالمغفل أو الجاهل أبسط ما يوجه إليه من ألفاظ ، فلقد فعل الشعراء ذلك من قبل فى آلهتهم؛ إذ أن تلك كانت أهم مميزات شعور الاثينى القديم الدينى نحو آلهته فى المعابد وفى الحياة الخاصة . كل ما امتاز به أرستوفان هو النظرة النافذة ، نظرة الناقد الحق فى الشعر وما يجب له ، وفى شعر هذين الشاعرين بالذات ، نظرة جعلت تصوير هذا النزاع على قدمه قويًا كاملا ، قد أكسبه الفن المسرحى روعة وجمالا . وبذلك تعد تلك المسرحية أقدم ما نعرف من صورة لهذا النزاع يصورها ناقد حق ، ولعلنا لا نكون مغالين إذا أضفنا : وأجمل صورة له أيضا .

مرسى القلماوى